

مقدمة:

تأسس الأنثروبولوجيا (**Anthropologie**) والإنثولوجيا (**Ethnologie**) على البحث الإثنوغرافي (**Ethnographique**) التوثيقي والمخبري بشكل خاص، على أساس أن هذا البحث العلمي هو دراسة عقلية (**fieldwork**) عملية تطبيقية بامتياز، على حد تعبير جميل حمداوي¹، تمد الإثنولوجي (**Ethnologue**) بمادة إثنوغرافية دسمة وعميقة وجادة لبناء نظرياته العلمية، وطرح فروضه وإشكالاته المختلفة والمتنوعة في دراسة الشعوب القديمة من جهة، أو البحث في العادات والأعراف الغربية لجماعة معينة ومحددة، في زمان ومكان معينين. ومن ثم، فليس من الصائب، في المجال العلمي، القبول بالأبحاث النظرية المكتتبية الإنشائية والذاتية المرتبطة بنقل المرويات المأثورة عن الرحالة، والمبشرين، والإداريين، والجغرافيين، والعسكريين، والمستشرقين، والإخباريين، دون النزول إلى الميدان المخبري الواقعي، أو الاحتكاك بالحقل التجريبي لمعاينة الظواهر الإثنولوجية ومراقبتها وتسجيلها وتدوينها وتوصيفها. ومن ثم، يصعب الحديث عن الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا بشكل علمي دقيق ومركز، دون استحضار الإثنوغرافيا باعتبارها علما تخصصيا يستند إلى الأبحاث المونوغرافية الوصفية، والحفرية، والاستكشافية، والتنقيبية، والاستقصائية، والتجميعية.

الاثنوغرافيا تعمل على تسجيل المادة الثقافية من الميدان، أي تقوم بوصف أوجه النشاط الثقافي البشري، ولا تسعى الاثنوغرافيا إلى "التقويم" فحسب، وإنما تسعى أيضا إلى تقديم صورة واقعية وتقديرية للأمور الحياتية لمجتمع ما إبان فترة زمنية معينة، قد تكون الفترة جزء من ماضي موضوع الدراسة، هنا سيسعى الباحث الإثنوغرافي إلى الحصول على المعلومات **من الوثائق والعينات المادية وغير المادية.**

فالوثائق والملفات والعينات المادية وغير المادية تمثل انعكاساً للمعتقدات والسلوكيات التي تشكل الثقافة، فهي تصف الخبرات الإنسانية والأفعال والقيم... فالإثنوجرافي في هذا المجال يتبنى أساليب المؤرخين في تحليل الوثائق وأساليب علماء الآثار في دراستهم الأشياء التي أوجدها القدماء. الوثائق تعد الذاكرة الفعلية للدول والأمم، لذا يعد الاهتمام بها هو أحد المقاييس المتعارف عليها في تحديد درجة تقدم الدول والشعوب، حتى أصبح الوعي الوثائقي مرتبطاً بالشعور الوطني. ومن أسباب تخلف بعض الأقطار في العالم، هو عدم الاهتمام بوثائقها، إذ إنها مرآة صادقة تعكس النشاطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للشعوب. وبصورة مختصرة **تعد الوثائق سجلاً رسمياً يعكس الخبرة الإنسانية.**

ونظراً لما تتضمنه الوثائق من معطيات حول التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والديني لمجتمع ما، المعطيات التي تظل بعيدة عن متناول المعاينة والمشاهدة؛ لاندثارها؛ أو لتطورها الجذري الكبير، خاصة إذا كانت معطيات تعلق بالقوانين والأعراف والتقاليد والعادات الخاصة بالمجتمع موضوع الدراسة في الماضي، أو لمجتمعات اندثرت. تاريخ الأماكن والمواقع الأثرية في حيز جغرافي محدد، وأحداثها وعمارتهما، وأخبارها، وثقافتها المعمارية...

¹ جميل حمداوي، مقومات البحث الإثنوغرافي، موقع صحيفة المثقف، العدد: 4434، تاريخ النشر بالموقع: 2018/10/26، رابط الموقع: <http://www.almothaqaf.com/a/b6/931857>، تاريخ زيارة الموقع: 2019/12/14.